على ضفاف النيل

بقلم المطران جورج خضر

في مصر سحر يعيدني اليها كل سنة ولو لم يتسنّ لي دائما ان استمتع بحضارتها القديمة او المملوكية لأحافظ على اشواقي. ولكن الأقباط هناك و "الشوام" هناك. لهم جميعا اقول مودات لي تحييني.

حي الضاهر في القاهرة والمراد به الظاهر بيبرس آواني. وهو الحي الذي استقبل اهل سوريا ولبنان وفلسطين منذ بدء هجرتهم في القرن التاسع عشر. كل كنائس منطقتنا هناك، متجاورة. وتحصر قومنا لهجة وحياة وإخلاصا. تمسكوا بمذاهبهم. التلاوات الطقسية تقرأ على طريقة ديارنا. فالجيم جيمنا وعند انتهاء القداس يلفظونها على طريقة مصر او الوجه البحري.

الارثوذكس ذوو اللسان العربي قلة عزيزة الآن. بعضهم رحل بعد التأميم والآخرون يهاجرون كالقبط ويظهر لك النادي الارثوذكسي في مصر الجديدة والنادي السوري في الاسكندرية بما فيهما من ذوق ان ارستوقراطية حياة قد ولت ولا تزال ترمز اليها اللغة الفرنسية التي يتكلمها الكهول والشيوخ بشيء من الأناقة.

غير اني لما تكلمت عند الروم في العاصمة حول اعيادنا الأخيرة كان الأقباط يسودون القاعة. انهم كثر. ادركت، اذ ذاك ان الطلائع الملتزمة روحيا متجانسة في هذا القطر. ليس ان الوضع الأقلوي يفرض هذا ولكن الوعي الروحي والمعرفة يشملان الكنائس كلها. اجل هناك تركيز على حياة الصلاة. وعند الأقباط تقوى جارفة ونسك وإرادة الاطلاع على المسيحية واضحة.

المسيحيون المتحدرون من منطقتنا ينجبون قليلا. اظن ان الأقباط ولاسيما في الريف اكثر خصوبة. غير ان سر بقائهم جميعا يأتي من صلابة كبيرة. وبدت سلطات البلد مؤخرا اكثر احتضانا للمسيحيين (دور اكبر لبراجمهم الدينية في الإذاعات، ترخيص اوسع لبناء الكنائس). ظهور العلماء المسلمين والروحانيين المسيحيين في المناسبات الوطنية والمؤتمرات شوق الى العيش المشترك. الأقباط رفضوا النظام الطائفي. بنوا آمالهم على وطنية الجميع. ولكن من نافل القول ان النظام "الوطني" في الانتخابات لا يأتي في اية دورة بقبطي واحد الى المجلس.

كيف يتم تفعيل المجتمع المدني بحيث يبقى سبعة او ثمانية مليون مسيحي في مصر بلا حضور في المجلس منبثق من الشعب. المذهل في هذا ان كل مصري يؤمن بمصرية الآخر. هذا شعب كله موالٍ لبلده. ولكن لماذا لا يترجم هذا تمثيلا شعبيا؟ هل توحي هذه الظاهرة ان المسيحيين المصريين مصابون بعقدة الأقلية فلا يقتحمون الحياة السياسة في كتل او احزاب؟ هل لا يقدمون برنامجا انتخابيا؟ هذا ما قاله لي مسيحيون.

رافقت مصر في اواخر عهد الملك فوأد وزرتها المرة الاولى في السنوات الاولى من الثورة. تلفتك ديمومة هذا الشعب الطيب الهادئ الصبور.

كان حنيني الى طه حسين. لما نظر الى مستقبل الثقافة فيها ما كان يتجنى على تاريخها. هذا الجمال الاوربي الكبير لا تزال تلمسه في الاسكندرية من حيث العمارة الكثيرة الذوق. حتى مطالع الخمسينات تحكي الاسكندرية كل اللغات وتتعايش فيها شعوب المتوسط.

هنا وفي القاهرة ومصر الجديدة وصحراء الرهبان آثرت الكلام على الأعياد التي لا يزال الأقباط يقيمونها حسابا شرقيا. قلت: تأتي اعياد المسيحيين الرئيسة امتدادا للفصح لأنها، بصورة او بأخرى، كلام على آلام السيد وقيامته. الفرح يعطل رتيب ايامنا لأنه ذو مضمون إلهي ينقض على الزمن التافه وينقذنا من وطأة داخلنا علينا. انت تنشد الفرح الحق وخيالك لا يأتيك به.

حاولت ان اكشف تجلي المعاني الواحدة او المتقاربة بين الميلاد والغطاس من حيث انهما مشتقان من القيامة. انت تحتاج الى كل هذا لتنقذ نفسك من الديانة الشعبية التي مضمونها هزيل مشوه وتاليا تصير ابتهاج الإنسان بنفسه. إلهية الأعياد ذلك هو التعميق الذي لا بد لنا منه ان ابتغينا لنفسنا قربى الإله.

نسجت حول الميلاد ومعمودية السيد للمرة الثالثة في وادي نطرون وهناك يجتمع معظم الرهبان المصريين منذ القرن الرابع بعد ان أطلق انطونيوس دعوته. لم يفقد دير الأنبا مقار حدة الرهبانية الاولى وبساطتها وشفافية انجيليتها. العلوم العليا التي اكتسبوها في الجامعات لم تفقدهم شيئا من الرؤية القديمة التي تبدو لهم ابدية. يطوعون كل وسائل النشر والإعلام في سبيل الكلمة ويصيرون خبراء الدولة المصرية في شؤون الزراعة اذ ينتجون بعلمهم خير النبات وخير الماشية. وذلك كله بتكنولوجيا متقدمة.

الفكر اللاهوتي يتجدد بلا تهور. عشرات من الكتب الجديدة كبيرها وصغيرها لمؤلف واحد هو الأب متى المسكين وقد صارت منقولة الى عدة لغات اوربية.

عدت من الصحراء الى القاهرة لألقي حديثا عن الحوار المسيحي–المسيحي والموضوع يفرح ويعذب بآن والوضع واحد عندهم وعندنا. لا يذهبون الى أبعد من قضية التوحيد لتاريخ الفصح وهي ملحة عندنا بسبب من اختلاط الطوائف ولكنها غير مطروحة في الوعي الشعبي اذا كان ينتمي الى كنيسة واحدة في بلد واحد.

في مصر الجديدة في النادي الارثوذكسي مساء السبت الماضي على رغم المطر الذي لم يألفه هذا البلد تكلمت على المشكلة الوحدوية في الكنائس وتفاقم التعقيد لهذه المشكلة.

هناك صعوبات تعترض الارثوذكسيين في انتسابهم الى مجلس الكنائس العالمي اذ يبدو لهم انه لا يبالي مثلهم بقضايا العقيدة وانه اكثر جنوحا الى "الاجتماعيات". هم في ازمة بسبب منه وهو في ازمة بسبب من عقائديتهم. والصعوبة تصير ازمة مع الكنيسة الكاثوليكية بعد ان انفجر لقاء الجمعية العمومية للجنة المشتركة للحوار في تموز السنة الألفين في الولايات المتحدة وذلك بسبب الاختلاف حول مسألة الكاثوليك الشرقيين. فبعد ان اعتبرت لجنة الحوار السنة الـ ٣٩٩١ في دير البلمند انهم ليسوا "نموذجا للوحدة" وان نشؤهم كان غلطة تاريخية أصر الفريق الأرثوذكسي على التبحر في عدم شرعية وجودهم من الناحية اللاهوتية وانقطع الحديث بين روما والشرق الأرثوذكسي مجموعا.

قد لا يعني هذا ان حركة التقارب أمست في إفلاس ولكنها في تأزم ما في ذلك ريب الى ان يبث الروح نفحاته من جديد.

لعل ما يضاعف مسؤولية المسؤولين ان عامة الشعب في كثير من البلدان لا ترى الجبال التي يراها اللاهوتيون. اجل هناك جانب من الاختصاص. ولكن الشعب تعب من عبء قرون ضاغطة عليه ويرى ان بساطة الإيمان بالمسيح تكفي ويحس بأن الآخر مؤمن مثله في الأساسيات.

ليس المجال هنا لأبين مقدار التشدد عند هذا الفريق او ذاك. المشكلة في الصراع العقائدي ان كل كنيسة صادقة في مواقفها وانها تشعر بأن الوديعة الإلهية التي ترى انها عندها لا يجوز التفريط بها. هل نعود القهقرى الى ما كنا عليه قبل التقارب ولكن نلتزم بالمحبة الكاملة بما تتضمنه من عدم الاعتداء على رعية الآخر ونتسابق في عمل البر والتربية وخدمة الفقراء ام نتجاوز الشعور بالقهر لنتابع مسيرة الوحدة في القلب والعقل؟

في المشهد المسكوني ألاحظ شيئين: اولهما ان القلوب التي تحررت من الاستعلاء وشهوة السيطرة والراغبة في الاتحاد كثيرة وثانيهما انه ليس مستحيلا، على مستوى الفكر اللاهوتي، ان نتلاقى.

***

الأحد في كنيسة رؤساء الملائكة في القاهرة أعانني جوق ما تيسر له من صوت ولغة. هل ان عبد الناصر بطرب عاميته وجلابيته كخطيب قضى على الفصحى خارج اسوار الأزهر ام كانت هي تنهار بسبب من الفقر اذ اللغة ترف؟ أقمنا الصلاة بلا زخرف، كدت اقول بصمت. لماذا غادرنا اجداد هؤلاء المصلين معي الى هذه البقعة من العالم؟ كيف يقدر احد ان ينسلخ عن جبالنا واوديتنا ويعيش على ضفة ما يسمى وادي النيل وليس فيه عمق؟ كيف لا تعيش على جبل او في سهل ترنو منه الى تسلق الجبل؟ كيف لا ترتفع او لا تهبط ولكنك تستكين وفي السكون يموت الشعر؟

حتى أمس كانت انوار الغطاس طاغية علي فجاء منها خطابي: "عبر الأردن، جليل الأمم. الشعب الجالس في الظلمة أبصر نورا عظيما". وعظت نفسي لأن السرد يختتم بقوله: "توبوا فقد اقترب ملكوت السموات". لا احد يتوب قبل ان يتوب الله اليه ويشده بشعر راسه اليه او بعنف الإله الغاصب يتحول هذا الإنسان الى غاصب للملكوت.

مع ذلك لا يدخل احد الا بالنعمة. ليس الله كاتب سند على نفسه بسبب من اعمالك الصالحة. هذه ايضا تفهة. انت تدخل بالرضاء بعد ان يقول لك: "انت ابني. انا اليوم ولدتك". من رأى ذلك وفهمه يتبناه ربه ويصبح كالعزيز الوحيد.

***

الأحد الماضي مساء كلن لي لقاء في مركز دراسات الآباء في مصر الجديدة وشرحت في معرض حديثي عن الغطاس ان كلمة السماء في معمودية السيد: "انت ابني الحبيب الذي به سررت" مقتبسة من المزمور الثاني ومن اشعياء وانها تقودنا الى آلام المسيح. فأثار هذا سؤالا: هل الحقيقة التاريخية هي هذا الصوت ام ان الانجيليين "ركبوا" المعنى الذي قصدوه هم. وكان علي ان ابين مساهمة الإنجيليين البشرية في السرد وهذا جديد في الكنيسة الشرقية. ولكن لا بد لهذه الكنيسة ان تتصدى يوما الى ما نسميه عنصر التاريخ في كتابة النص الإلهي. وبينت ان المسيحيين ليس عندهم كتاب منزل كلماته ازلية ولا تمس واقع التأليف. ان ما عندنا هو "نفحات الروح" التي لا تلغي مشاركة الكاتب.

كلمتي الأخيرة في مصر كانت عن الكنيسة: تعريفها جذورها، كونها من الاجتماع الأحدي وتناول القرابين.

قبيل هذا ذهبت الى النيل كي لا اكون محروما من صانع مصر وآلهتها قبل ان تفني المسيحية الآلهة القديمة. في غير محاضرة وغير لقاء كانت تلتمع في ذهني الاسكندرية بأفلوطين وفيلون واوريجانس واقليمندس ومن اليهم من العظام. استطيع حملهم فيما يحضنني لبنان هذا الذي نشتاقه دائما ابدا ولو بعد غياب قليل.

ودعت شنوده الثالث المنتصب "علامة وشهادة لرب القوات في ارض مصر" كما يقول اشعياء. حملت التقوى من شعب شنوده الى بلدي.